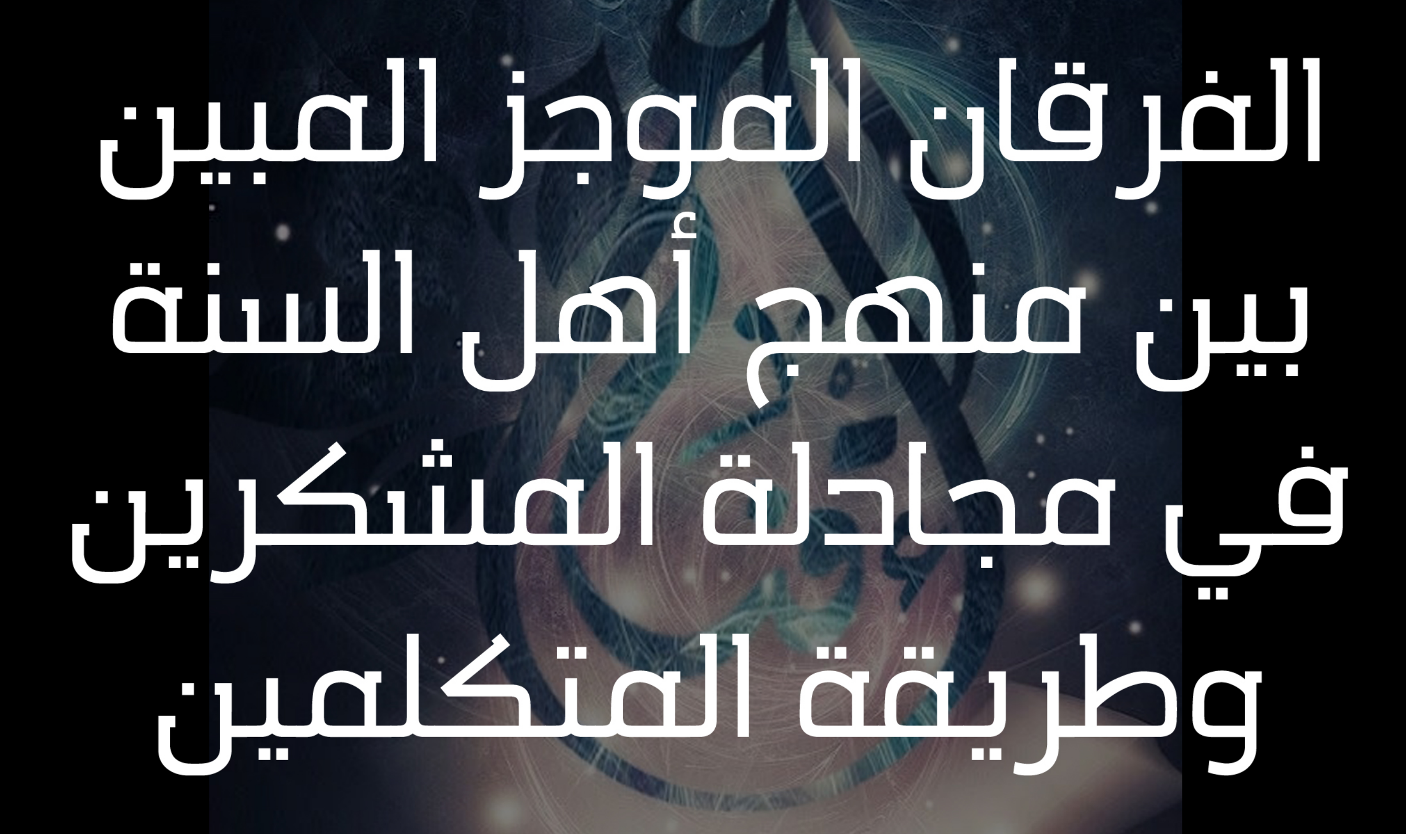


الفرقان الموجز المبين بين منهج أهل السنة في مجادلة المشركين وطريقة المتكلمين

أبو الفداء ابن مسعود

غفر الله له



الفرقان الموجز المبين

بين منهج أهل السنة

في مجادلة المشركين

وطريقة المتكلمين

أبو الفداء ابن مسعود

من إصدارات إقناع

الحمد لله الذي أظهر نوره على العالمين، وبعث رسوله بالحق المبين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، محمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين، أما بعد،

فقد قال الله تعالى في محكم التنزيل: ((ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)) [النحل : ١٢٥]، وقال: ((وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)) [العنكبوت : ٤٦] فالجدال من سبل الدعوة إلى الله تعالى التي يضطر إليها الداعية في كثير من المواطن، عند توجيهه الخطاب إلى المشركين، سواء كانوا كتابيين أو وثنيين أو ملاحدة طبيعيين. والجدال بالتي هي أحسن، كان في حقيقة الأمر، ولم يزل، محل نزاع بين أهل السنة وطوائف من أهل البدع. وأعني بأهل البدع هنا، أهل البدع الكلامية وطريقة المتكلمين في الجدال. فهم يزعمون أن المراد بالجدال بالتي هي أحسن في الآية، طريقتهم اليونانية في المناظرة والمخاصمة مع أهل الملل والنحل، وهذا من أبطل الباطل، والنزاع فيه يحتاج إلى شيء من البيان والتحرير لعله لا يناسبه

الجمل الموجزة في مقام كهذا، لكن عزائي أن البسط والتفصيل مبثوث في كتاب الكشاف وفي محاضراتي على قناة إقناع في أكثر من سلسلة من السلاسل العلمية المخصصة لنقد طريقة أهل الكلام ونقد مناظرات المتكلمين، أسأل الله أن ينفع بها وأن يضع لها القبول.

سأعقد هنا بحول الله تعالى مقارنة موجزة بين طريقة أهل السنة وطريقة أهل الكلام في الجدال ومخاطبة المشركين بالدعوة إلى الله تعالى، وأبين أن طريقة أهل السنة هي المراد بالضرورة من قوله تعالى ((وجادلهم بالتي هي أحسن))، خلافا لطريقة أهل الكلام. فأقارن بينهما من حيثيات، وهي:

- المقصد الشرعي من الإقدام على الجدال
- طبيعة موضوع الجدال
- النظر في حال المخاطب بالدعوة
- مستند الحجية معرفيا، ومنطق الجدل (ما يقال به إن الحجة قد قامت على المخاطب)
- المسلك والطريقة المتبعة في الجدل
- إمكان الموازنة بين المصالح والمفاسد من عدمه.

فأما فيما يتعلق بالمقصد الشرعي، فسواء أهل السنة أو أهل الكلام فيصرحون بأن المقصد إنما هو الدعوة إلى سبيل الله تعالى، وعرض الإسلام على الناس، رجاء أن يقبلوا الدخول فيه. ولكن عند التحقيق، يتبين أن طريقة المتكلمين إنما صممها اليونانيون الأوائل لإظهار صاحبها على خصومه في العلن، وبيان قدرته على التفوق عليهم في نفس بضاعتهم التي يستميلون بها الناس، بصرف النظر عما ينتهي إليه المخاطب والحضور من الدين والاعتقاد! فالجدال الفلسفي إنما ظهر على الصورة المعروفة في مناظرات الغربيين، في أثينا في القرن السادس قبل الميلاد، ومن قبل ذلك، في إطار ممارسات القوم للجدال السياسي والديني في ظل الديموقراطية الأثينية الأولى، حيث صار من المطالب الأساسية للمواطن الأثيني الذي يريد لصوته أن يكون مؤثرا في صنع القرار السياسي في البلاد، أن يكون بارعا في إقناع الخصوم بصحة موقفه وفساد موقف مخالفه أيا ما كان موضوعه، مع الحرص، في نفس الوقت، على شحذ الموافقين والموالين من جماهير الناس، لاستمالة الأكثرية والأغلبية، بإظهار التفوق والعلو على الخصم في مجالس الخصومة العلنية! فكان الناس يحتاجون، بطبيعة الحال، إلى من يدربهم على فنون الخطابة والإقناع بكل قول وإن كان من أبطل الباطل، وإبطال قول المخالف وإن كان من أظهر البديهيات، وهذا

ما صار يعرف بالسفسطائيين، وهم أساتذة ذلك الفن الذين دربوا الناس على تلك الطرق. كانوا يعلمون تلميذهم الانتصار بالحيل العقلية واللفظية والخطابة Oratory، لأي مذهب أيا ما كان! وكان أحدهم يفاخر بأنه قادر على إقناع الناس بأي شيء، أيا ما كان!

في ذلك السياق، شعر الأساتذة الأكاديميون المتبوعون في مختلف العلوم (وهم الفلاسفة) بفساد تلك الطريقة، فذمها بعضهم كأفلاطون في كتابه الجمهورية، وأرسطو في كتابه في الرد على السفسطائيين، وهو ما حمله على تعريف ما بات يقال له المغالطة المنطقية Logical Fallacy والتنبيه على أنواعها، ولكنه اضطر لسلوك طريقتهم الدليلية Evidentialist في إثبات كل دعوى، مهما كانت واضحة جلية لا تحتاج إلى إثبات، فتفنن في طريقة للجدال باتت تعرف بالسيلوغية Syllogism، واقتصر في بناء الحجج بها على دلالة القطع والاضطرار الاستنباطي خاصة Deductive Necessity، مستغنيا عن الاستقراء الذي كان يحسن السفسطائيون استعماله في الجدل السياسي خاصة (فيما يقال له في الأدبيات الجدل الدياليكتيك Dialectic Debates)، وأسس على ذلك

الأسلوب في تحرير المقدمات والنتائج الاستنباطية على طريقة صورية، قواعد وحدود ما بات يقال له المنطق المشائي أو المنطق الأرسطي.

ولما كان الفلاسفة يكرهون بطبيعة الحال أن يتسبب أولئك المسفسطة في تهميشهم وفي تمكين العوام من مجادلتهم بعقائد دينية صار يسهل في ظل تلك الملاحم الجدلية التي كان يعقدها الناس في كل زاوية، أن تسود وتنتشر في الجماهير، بما يترتب عليه التضييق عليهم وحرمانهم من الغاية التي يطعمون فيها، وهي اعتلاء مقاعد السيادة الفكرية والمعرفية في البلاد، وجمع الأتباع والموالين المضطرين لمتابعتهم على ما يزعمون أن عقولهم قد كشفته لهم بشأن الوجود والموجود، أصبح كل صاحب اعتقاد ديني يريد الانتصار له، يجالَس ويجادَل ويطالَب في المخاصمة بأن يبرهن على صحة دينه ببرهان سيلوغي بناء على نظرية المعرفة السفسطائية تلك، فإن لم يوفق لذلك، أو استطاع الخصم أن ينقض عليه برهانه في المجلس، سقطت عليه دعواه وأمكن فض الناس من حوله، واستمالتهم لحزب المخالف، وكان هذا هو غاية ما يرام في ثقافة الممارسة الديموقراطية السائدة آنذاك، لسحب بساط الأتباع والموالين من تحته!

فلما جادل الفلاسفة الذين تشبعوا بتلك الطريقة السفسطائية المحضة، أناسا من أهل الكتاب، وأراد أهل الكتاب أن يدعوهم للدخول في دينهم، طولبوا بأن يقدموا برهانا استنباطيا جدليا Propositional Argument على وجود من خلقهم، ومن ثم على استحقاقه لأن يعبد، ومن ثم على صحة نسبة كتابهم ودينهم إليه، على هذا الترتيب. فبدلا من أن يبين لهم هؤلاء المفتونون بالفلسفة والفلاسفة – الذين تربوا هم أيضا في حياضها وعلى تعظيم المنطق الأرسطي والميتافيزيقا الأرسطية – فساد تلك الطريقة من أصل نشأتها، وأن السفسطة تدخل على موضوع الجدال نفسه ابتداء، من مبدأ الأمر، كما تدخل على طريقته ومقدمات البراهين المستعملة فيه، خضعوا لشرطهم المعرفي وأجابوهم لطلبهم، ومن ثم نشأ ما يقال له اللاهوت الدفاعي عند أهل الكتاب. ونظير ذلك وقع لأناس من أهل القبلة، وتحت نفس الظروف، فنشأ ما يقال له علم الكلام والجدل الكلامي.

فالطريقة الجدلية الكلامية إنما قامت، من أصل نشأتها التاريخية، على تحقيق مطلب الانتصار على المخالف وإظهار النفس في الخصومة بأي طريق، وقهر الخصم أيا ما كان مذهبه المنتصَر عليه. يتعلم المجادل أن يتفنن

لا في إظهار الحق بما هو عليه، مشترطا على نفسه أن يقبله إن ظهر عند مخالفه وإن كان من أبغض الناس إليه، ولكن يتفنن في إظهار نفسه بأنه قادر على قمع المخالفين وتسفيه أحلامهم على الملأ، أيا ما كانت مذاهبهم، وإن كانوا من أصدق الخلق وأحراهم بأن يتبعهم الناس. يأتيك رجل يدعي أنه لا يجد دليلا يدله على أنه مخلوق وبأن له ربا يقوم بأمره من فوقه، ثم يقول لك: أريد دليلا على ذلك، ويقول لا أرضى بالدليل إن تكلفته حتى يكون جاريا على نظريتي أنا في المعرفة، مبنيا على تصوري أنا وأقراني لحقيقة العالم وعلى نظريتي في كيفية وسبب قيام الصفات بالموجودات في الأعيان، واتصاف الأشياء الوجودية بمعاني الزمان والمكان، فإن لم تفعل، فلست عندي على علم ولا عقل، وإيمانك إذن إيمان السفهاء المقلدين، فتسارع أنت إلى إجابة شرطه، وإلى إظهار أن الحق الذي عندك يقوم على ما يسميه هو بالعقل والعلم زورا وكذبا، بحيث إذا ناظرته، أظهرت له ولمعظميه أنك متحقق بحقيقة العقل والعلم كما هي عنده وعندهم، ومن ثم تظهر العلو عليه وقهره إذا انتصرت على اعتراضاته على برهانك. فخبرني بربك كيف يكون هذا منك انتصارا للحق بالحق، وتجردا في الجدال لرب العالمين، وامتثالا لقوله تعالى ((بالتي هي أحسن))؟؟ أبدا وربي! وإنما يكون جدالا بالتي هي أغرق في الكبر

وشهوة الرياسة، وبالتي هي أرجى لرفعك في أروقة الفلاسفة وإقعادك فوق أكتافهم كما تشتهي!! قد هزمت الحق الذي تزعم الانتصار له بمجرد أن سلمت لمجرم كهذا بأنه فعلا لا يدري أنه مخلوق، وبأنه يحتاج إلى ما يشترطه عليك من الدليل النظري لأجل أن يعرف ذلك! فأيما انتصار يتم لك عليه بعدئذ، إن تم، فإنما يكون انتصارا لنفسك لا لله، والله المستعان.

أما أهل السنة فيقصدون إلى بنيان الباطل فينسفونه من قواعده نسفا مبرما، لا أنهم يقيمون الحق الذي عندهم على تلك القواعد! نهدم ميتافيزيقا أرسطو عند من شرط علينا أن نؤسس عليها، ونبين أن العقلاء الأسوياء إذا سلموا منها، اعتدل لهم لسانهم واستقامت آلة النظر عندهم، ورأوا دلالة الفطرة على ثبوت من خلقهم كما يراها كل عاقل سوي النفس، وشعروا بشناعة مقتضيات نفيه، ولم يجدوا ما به يسفسطون عليها، لا أننا نجيبه إلى شرطه بالتأسيس على تلك الميتافيزيقا المتهافتة، رجاء أن نسلم من التهمة بخفة العقل والتقليد في الإيمان!

فإذا جادلوا رجلا تصح فيه شروط المجادلة عندهم، كما ستأتي، وكان دهريا طبيعيا، صاحب تأثر بالفلسفة الطبيعية، فيكون جدالهم بأن يبينوا له أن ما يشترط عليهم أن يكون اعتقادهم في وجود الصانع وصفاته

وأفعاله موافقا له من فلسفة ميتافيزقية عنده، حتى يكون اعتقادا ﴿عقلانيا﴾ Rational، هو به معتد على العقل والعلم والمعرفة جميعا من مبدأ الطرح، وفي سياق ذلك، يبين له بالبرهان العقلي فساد لوازم عدم وجود الباري، ويشنع عليه بها كما جاء به القرآن! فإن أصر أنه لا يرى ذلك كله قائما بالمطلوب، ولا يقبل الحق حتى نقدمه له على ما شرط أن يكون عليه دليله، فإننا نقطع الجدال معه ونحكم بأن الحجة قد قامت عليه، وانتهت القضية، خلافا للمتكلم الذي تمنعه أصول طريقته والتزاماتها المنهجية المعرفية من قطعها وادعاء أن الحجة قد قامت على الخصم، إلا بمحض التحكم! نحن نقدر، بفضل الله تعالى، على إنهاء الجدال مع المخالف من أيما ملة كان، بما نكون قد بذلناه من بيان تناقض ما يتعلق به من مستند ميتافيزيقي ومعرفي فيما يعتقد وما يجعله سببا لرد الحق الذي عندنا، فإذا بطل القول، ثبتت صحة نقيضه بالضرورة، وتقوم الحجة بذلك ناصعة كالثلج! وأما صاحب الكلام فما دام يؤسس دعواه على أصول الباطل والسفسطة، فلا يملك أن يقطع أحدا بشيء، ولا أن يقف في نقطة ما من مجرى المخاصمة ليقول كما يقوله المتكلمون عندما يفقد أحدهم داعيه للمواصلة: أنت تكابر المعقول، وقد تبين أنك تجحد الضروريات، فلا نواصل! هذا على أساس أنه حين جاءك من الأصل

يقول إنه لا يدري أنه مخلوق، ويحتاج إلى تأسيس ذلك على ميتافيزيقاه، لم يكن مكابرا للعقل جاحدا للبداهة والضرورة، ثم تبين ذلك من حاله أثناء المناظرة؟ هذا محض وهم! فساد الانتهاء من فساد الابتداء، وما كان ابتداؤه بالسفسطة، لم ينته إلا إلى السفسطة! ولا عبرة بشعور المتكلم بأنه قد أحرج خصمه في موطن ما، فإن هذا هو غاية ما يمكنه تحقيقه في تلك الألاعيب اليونانية الواهية!

فمهما زعم المتكلم أن طريقته في دعوة أهل الملل للإسلام، طريقة جارية على مقصد إحقاق الحق وإبطال الباطل، فلا يكون صادقا في ذلك. ولا يعني هذا أنه يكون بالضرورة منافقا أو صاحب هوى، يعلم فساد طريقته ومع ذلك يصر عليها، بل قد يكون جاهلا مقلدا، يجري على ما تربى عند شيوخه على أنه هو طريقة أهل السنة في مجادلة المشركين والرد على الفلاسفة، وهذا هو الأكثر في هؤلاء. وكثير من المنتسبين إلى السنة وإلى السلفية في عصرنا هذا يقعون في تلك الطريقة من حيث لا يشعرون، ويحسبون أنهم ممتثلون لقوله تعالى ((وجادلهم بالتي هي أحسن))، فلا يلزم أن يكون الرجل منتسبا إلى طائفة من فرق أهل الكلام حتى يصح فيه أنه صاحب طريقة كلامية في الجدل. بل ولا يلزم أن يكون موضوع جدله

مع خصمه هو وجود الباري وما يتعلق بحدوث العالم أو إمكانه، كما هو موضوع جدال المتكلمين الأولين مع خصومهم من الفلاسفة، حتى تكون طريقة الجدل نفسها هي تلك الطريقة اليونانية المنكرة. بل قد يكون الجدال مع وثنيين أو أهل كتاب، ومع هذا يكون موضوع الجدال جاريا في اختياره على أصول الطريقة اليونانية لا على طريقة أهل السنة، من حيث لا يشعر صاحبه. فمثلا، في مجادلة النصارى، إذا أراد طالب علم سني متضلع بطريقة أهل السنة أن يدعو أحدهم إلى الإسلام، فإنه يعمد إلى أعظم وأجلى ما عندهم من الباطل الشنيع، الذي شنعه عليهم رب العالمين، فيدعوهم للخروج منه ببيان بطلانه وشناعته، فينقض عليهم دعوى التثليث، أو دعوى تأليه المسيح، أو دعوى موت الرب وبعثه من الأموات، يبين لوازمها الشنيعة ويبين أنهم لا يدفعون تلك اللوازم إلا بمكابرة المعقول وباستعمال المغالطات البينة، فإن سلموا لهذا، تبعه التسليم بأن كتابهم محرف ولا شك، لأنهم اعتمدوا فيه ما أجمعوا على عده دليلا على بعض ذلك، وإجماعهم نفسه دليل على فساد المصدر الذي أسسوه عليه، وأنت تكون بذلك قد بينت فساده بقواطع العقل المنتهية التي لا يجادل فيها إلا مكابر، ومن ثم يثبت لك قيام الحجة عليهم ويتم المطلوب، دون أن تحتاج أصلا لأن تستخرج نصا واحدا من كتابهم تستدل به ولو من

باب الاستئناس. والصحابة ما كانوا يعضرون الإسلام على النصارى بأن يجادلوهم بأكثر من ذلك، بل كانوا يطالبونهم بالخروج من قول التثليث لشناعته الواضحة الجلية، ومن تأليه المسيح، ومن القول بقيامة الرب وهذه الأمور، دون حاجة إلى الخوض في أكثر من ذلك. فإن تماروا واختلقوا المعاذير وتفلسفوا، فإن فساد ذلك يكون غير محتاج إلى كبير جهد لإظهاره، ومن ثم إظهار أن الحجة قد قامت عليهم وأنهم إنما يكابرون للتمويه ولذكر الرماد في عيون أتباعهم. أما عندما يؤتى بكتبهم، ويقال لهم سنثبت لكم من كتبكم نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وأن دلائل ذلك عندكم لم تطمسها أيدي التحريف، أو يقال سنخرج لكم من بعض الكتب التي أهملتها مجامعكم الكنسية (الأبوكريفا) ما يدل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، أو حتى يقال لهم سنثبت لكم أن نصوصكم محرفة وأن طبعاتها متناقضة فيما بينها، وسنكشف لكم تدليس وكذب كبرائكم في تفسير تلك النصوص والجمع بينها، فهذا مثله كمثل نصراني يأتي إلينا يقول: سأثبت لكم من كتبكم أن المسيح قد صلب وأن الفداء حق والبنوة حق! وهذا قد رأينا منهم من يتكلفه فعلا!! فعندما ترد أنت على هذا فبأي شيء ترد؟ تبين له أنه أجنبي على الطريقة التي أجمع أهل اللسان من ورثة نصوص المسلمين على أن الكلام لا يفهم إلا بها، أليس كذلك؟

بلى! ولكن نظير ذلك هو ما يرد أحدهم به على هذه المسائل، يقول أنتم لستم أعلم بهذه اللفظة اللاتينية أو السريانية واستعمالاتها عند ورثة من كتبوا تلك الكتب، ممن تتلمذوا عليهم ونقلوا علمهم هذا إلينا! ولن يظهر لكم أنتم الآن ما خفي على قرونهم قطعا! وتصرفاتهم في الجمع بين النصوص التي يظهر منها التعارض، هي تماما كتصرفات علمائكم معاشر المسلمين فيما ظاهره التعارض في القرآن، من حيث بيان وجوه اللغة والاستعمال وطرق التأويل! ونقول لا شك أن كتبهم قد وقع فيها التحريف، بل وفيها اختلافات جلية تظهر في تناول أكثر من كتاب لنفس القصة، وكتاب يوحنا خاصة (وهو آخرهم) فيه من العجائب ما فيه، فلا يصح بحال أن يقال إن تصرفات علمائهم في التعامل مع تلك الاختلافات، كتصرفات علمائنا في دفع إيهام التعارض عن آيات القرآن! ولا شك أن من اضطر للرد على تلك الشبهة، فلن يعجزه بيان ذلك، وسيبين أن ظهور التعارض إنما يقع بين متشابه ومتشابه أو بين محكم ومتشابه، وأن دفع ذلك لا يدخله تكلف ولا تحميل للغة ما لا تحتمله، بل إن الوجه الصحيح لكل لفظ متشابه في الكتاب، إن لم تنطق به نفس الآية محل التشابه، فالقرآن دال عليه لمن أحسن فهم محكماته وكلياته، وما جاء به الرسول عليه السلام من البيان كما في قوله تعالى: ((بِالْبَيِّنَاتِ

وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)) [النحل : ٤٤]، مع ما حرره أصحابه وتلامذتهم من التأويل والتفسير، كل ذلك لا يفهمه باحث سليم الصدر إلا قطع بأنه لا مدخل فيه للاختلاف والتناقض بحال من الأحوال، كما في قوله تعالى: ((أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً)) [النساء : ٨٢]. خلافا لتلك الكتب، فإن تكلف القوم في التوفيق بين ما اختلف بل تناقض منها ظاهر في كثير من المواطن. وكذلك تكلفهم دفع ما في كتبهم من تهمة لأنبياء الله تعالى بخوارم الدين والعقل والمروءة، بالتأويلات الباردة، من تدبر فيه متجردا للحق تين له وهاء جهودهم في ذلك. ولكن خبرني بربك، هل أنت إذا جئت النصراني تجادله في هذه الأمور التأويلية، هل حقا تريد أن تدعوه للخروج من الشرك والدخول في التوحيد، أم تريد أن تبين له أنك أعلم بنصوص كتابه منه، ومن ثم فعندما تقول له إنه كتاب محرف متناقض، فكلامك أوجب للقبول، وإن خالفت به جميع علماء ملته وتصرفاتهم في التأويل؟؟

نعم نحن نتحدى جميع أهل الملل بأن يخرجوا من كتاب الله تعالى تناقضا واحدا، وهذا من أعظم وجوه الإعجاز فيه، ولكن ليس هذا هو مبدأ

دعوتنا وخطابنا لأهل الكتاب! لم يبعث النبي عليه السلام أصحابه إلى النصارى ليتحدوهم بهذا التحدي! وإنما بعثهم بدعوتهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له! أعظم معجزات القرآن هو نفس موضوع الدعوى التي جاء بها، تلك الدعوى التي لا يعقل أن يوجد في كتب أهل الملل ما هو أهدى منه، كما في قوله تعالى: ((قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)) [القصص : ٤٩]، وقوله: ((قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)) [يونس : ٣٥]، فمهمة من يخاطب هؤلاء بالدعوة ابتداء، عند السلف، إنما هي نقض الشرك الذي ذمهم لأجله رب العالمين في كتابه، فإذا قبلوا ذلك، جزموا ولابد بوجوب أن يخرجوا من تلك الكتب إلى كتاب الله الخاتم، المهمين على جميع ما كان قبله. أما أن يجري الجدال مع القوم وكأننا جئنا لنعلمهم درسوا في فلسفة التأويل واللاهوت التفسيري، فهذه ليست طريقة أهل السنة في الجدال بالتي هي أحسن!

كان الشيخ أحمد ديدات في مستهل دعوته يناظر القوم على الثالوث وعلى البنوة وتأليه المسيح وقيامة الرب، فكان لا يصمد أمامه أحد، وكان

المنصرون يخافونه ويهابونه ويحسبون له ألف حساب، حتى سمي بأسد الإسلام، رحمه الله. فلما أظهر حفظه لكتبهم عن ظهر قلب، وأخذ يظهر لهم مواضع الاختلاف فيها، ابتلي بمنصر فلسطيني أمريكي يدعى أنيس شوروش، ناظره مرة في مسألة ﴿هل المسيح هو الإله؟﴾ فأحرقه وجعله نكالا، فلما طلب الرجل المناظرة لمرة ثانية، وافق ديدات، واتفقا على أن يكون عنوان المناظرة: ﴿القرآن أم كتاب النصارى هو كلمة الله؟﴾، فخرج الرجل بأداء مسرحي بارع، مرتديا زيا عربيا لم يلبس مثله يوما في حياته من قبل، وحشد في كلمته جمعا من شبهات المستشرقين وما يناظرها مما أحدثه هو من كيسه، من دعاوى الغلط والتناقض في نصوص القرآن، لم يسبق أن اجتمع في محل واحد من قبل، وعرض بعضها بالعربية التي كان يحسنها، مراهنا على جهل الشيخ باللغة العربية، وعلى عجزه عن أن يرد على قريب من مئة وخمسين شبهة قاءها الرجل في الوقت المخصص له، إن استطاع أن يفهم أكثرها أصلا، فانتصر الرجل بذلك، وكسر أسطورة ديدات عند جماهير النصارى في الغرب، ولم يكتف بذلك، بل جمع تلك الشبهات ونشرها في كتاب لم يزل إلى اليوم يستعين به المنصرون من أمثال زكريا بطرس ورشيد حمامي ومن شاكلهما، في حمئة ما كنا لنضطر للتصدي لها، لولا تلك المناظرة المشؤومة، وإلى الله المشتكى! أرأيت لو كانت دعوة

القوم اقتصرت على مثل ما خاطبهم به القرآن من التشنيع على أصول الملة، مع الدعوة إلى التوحيد الخالص، أفكنا نغرق في تلك الحمأة اليوم؟ أبدا! فهذا من شؤم الطريقة اليونانية في فتح موضوعات الجدال العلني بين أهل الملل على مصراعيها، والله المستعان.

وإلا فهل كان يحتاج الشيخ لأن يناظر شوروش هذا مناظرة ثانية في موضوع كهذا، وقد سبق أن أسقط أصلا من أصول النصرانية الكبرى على رأسه في مناظرتهما الأولى، بما لا مزيد عليه؟؟ أبدا! ما كان يحتاج لذلك عفا الله عنه! مع أن القالب الذي سلكه الشيخ في جميع مناظراته قاب يوناني صرف كما سيأتي، لكن كلامنا هنا على موضوع الخصومة! إن سلمنا بأن الرجل شوروش هذا كان بحيث تترجح المصلحة الشرعية بمناظرته علنا، من الأساس، وسلمنا بمشروعية وسلامة القالب الجدلي اليوناني هذا، قالب المحامين كما سماه بعضهم (ربع ساعة أو أقل أو أكثر، كلمة افتتاحية لأحد الخصمين، ثم مثلها للآخر، ثم رد لهذا مدته كذا، ورد لذاك مدته كذا، وهو غالبا أقصر طولا من وقت الكلمة الافتتاحية، ثم قد تتكرر الردود التبادلية أو يفتح الباب لأسئلة الحضور، أو ليتوجه منسق الجلسة بالأسئلة للمتناظرين)، فقد هدمت الرجل هدما في المناظرة

الأولى فما تركت منه شيئا، على مقاييس القوم في الحكم بذلك على الأقل، وانتهت القضية! فلماذا قبلت مناظرته لمرة ثانية إذن؟؟ الآفة يا إخوان، وهي من آفات طريقة المناظرات اليونانية هذه، أن جماهير الأتباع والمحبين يضغطون على الداعية ضغطا عظيما، فهم يحبون أن يشهدوا تلك المعارك وأن يتحيزوا لممثل دينهم تحيزهم لفرق كرة القدم في المباريات!! فإذا كان الشيخ قد أفحم هذا المنصر الخبيث في مناظرة سابقة، فلابد أنه في المناظرة الثانية سيفحمه أيضا، وسيصبح لدينا إذن نصران مؤزران عليه عوضا عن نصر واحد! فمن يكره هذا؟ ولكن للأسف جاءت الرياح بما لا تشتهي السفن كما مر، وأسقط في أيدي الرجل بما لم يكن يتوقع ولا يحتسب!

وهذه الطريقة، كان تلميذ ديدات، الداعية الهندي المعروف «ذاكر نايك»، أكثر إغراقا فيها ولم يزل، ولكنه مارسها مع الهندوس وليس مع النصارى! فالرجل يحفظ كتب الهندوس عن ظهر قلب، برقم الفقرة ورقم الصفحة! وهو أعجوبة في هذا! وهو، مع ذلك، لا يقل عجمة عن ديدات، إن لم يكن أعجم منه! عجز عن حفظ القرآن بلسانه العربي، فحفظ ترجمة يوسف علي الإنكليزية عن ظهر قلب، بأرقام الآيات والصفحات أيضا،

ومن ثم صار يعاملها معاملة نص القرآن، ويوصي الناس بها، على ما فيها من أخطاء ومخالفات! فصار الرجل يحتج على الهندوس بنصوص من كتبهم، مع أنهم ليسوا من أهل الكتاب أصلا ولا عندهم حتى شبهة كتاب! أنت قد تحتج على أهل الكتاب بنصوص عندهم، لعلمك أن في كتبهم ما هو من بقايا كلام الأنبياء! فإن كانت حقا موافقا لما عندنا، فتكون حجة عليهم من هذه الجهة! أما هؤلاء فكتبهم فلسفية أرضية وضعية صرفة، وهذا يعلمه كل من شم رائحة العلم من أهل القبلة! ومع هذا سلك الرجل طريقة في دعوة الهندوس، يخاطبهم فيها باستخراج نصوص من كتبهم وتأويلها بأنها تفيد بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وبصحة دين التوحيد! وهذا من الكذب الصراح، ومن أعظم ما يكون من التلبيس! فإن هؤلاء لم يكن لهم صلة بأنبياء الله أصلا، وكل ما تكلفه بعض الناس من ادعاء أن فلانا من كبرائهم الذين نقلوا نصوصهم في تلك الكتب كان نبيا، ولكن حرف كلامه، كل ذلك تخرص لا دليل عليه! فهل المطلوب من الهندوسي أن يدخل في الإسلام تأسيسا على أن الفيدا الهندوسية كتاب سماوي منزل، وهي تدعوه إلى ذلك؟؟ أم أن يدخل فيه تأسيسا على بطلان أصول الملة الهندوسية وفساد شركها ووثنيتها الغالية؟؟ هؤلاء قوم كان السلف يدعونهم للتوحيد، فإن قبلوا عصموا

أموالهم ودمائهم من جيوش المسلمين، وإن أبوا لم يعصمهم شيء! ففي أي شيء أنت يا رجل؟؟ نسأل الله السلامة.

يقول بلسان الحال أنا لن آتيكم من نصوصكم بما يبين تناقضها وحسب كما سلكه أستاذي ديديات من قبل، بل سأخرج لكم منها ما لو كنتم صادقين في الإيمان بها، فستسلّمون بأنها هي تدعوكم إلى الإسلام! وإذن يصبح الهندوس والمسلمون في محبة وسلام، كما صرح به في بعض كلامه، لأنه إذن ينكشف لهم جميعا أنه لا داعي للقتال والصراع بين الطائفتين، فنحن نقول كل شيء لله Everything is God’s وهم يقولون كل شيء هو الله Everything is God، والفارق بين العقيدتين حرف واحد!! إي وربي هكذا قال، وسمعتها منه بأذني، ولا حول ولا قوة إلا بالله! فهل أنت داعية تريد هداية الهندوس إلى الإسلام وإخراجهم من الشرك والوثنية إلى التوحيد حقا كما تدعي، أم تريد القضاء على الصرع الطائفي في الهند، بأن يصبح الهندوس مسلمين محبين لكتاب الفيدا، متعبدين بتلاوته، موالين للهندوس؟؟؟

فوجه كون ذلك المسلك من الطريقة الكلامية اليونانية، وإن لم يكن الرجل يعقد المناظرات العلنية على طريقة ديدات أصلا، ولكن يعقد محاضرات

ثم يجيب عن أسئلة الحضور من الهندوس ويجادلهم وكذا، أن موضوع الخطاب الدعوي يطلب به الداعية تأسيس الحق الذي عنده على بعض الباطل الذي عند المخالف، إظهارا لدرايته هو واقتداره، وقدرته على التفوق به على أصحابه!

تحضرني الآن مناظرة عقدها شاب داعية مصري كان له شهرة قديما في غرف البالتوك على الإنترنت في دعوة النصارى، اسمه وسام عبد الله، عقدها مع القمص عبد المسيح بسيط، وهو من علماء النصارى الكبار في مصر، وكان موضوعها ﴿هل أعلن يسوع من هو الإله؟﴾، وكانت طريقة الشاب أن يأتي بالنصوص التي يستند إليها القوم في ادعاء أن المسيح يشير بها إلى إلهيته وربوبيته، أو التي يشير فيها غيره إليها، ليبين أن المعنى السرياني أو اللاتيني للنص الأصلي لا يفيد بذلك! فلما عرض ما عنده، أخذه الخصم في محاضرة طويلة ليشرح له كيف تعامل القوم مع هذه الأصول وكيف ترجموها، وكيف حملوها على ما قرره لهم بولس في كتابه الذي هو عندهم من جملة كتبهم المقدسة، من أنه ظهر له وأرسله للتبشير بإلهيته! ومضى الأخذ والرد بين الرجلين لأربع ساعات ونصف كاملة، والقمص في جميع ذلك لا يشعر بأي ضيق ولا ملل، بل يرى أنه قد انفتح

له باب أخيرا ليعلم هؤلاء الشباب المشغبين على خراف الكنيسة، كيف يتعامل علماؤهم مع النصوص! بل إنه في نهاية المناظرة صرح بأنه يتمنى لو أنها تتكرر مرات ومرات حتى يتمكن من بيان طريقتهم في دفع تلك «الشبهات» عن نصوص الكتاب! فبالله هل هذه مناظرة على طريقة أهل السنة في الجدال بالتي هي أحسن؟؟ أبدا والله! بل هي على طريقة أهل الكلام تحقيقا!! فالتطلع إلى إثبات التفوق العلمي على الخصم، في مسائل نظرية دقيقة للغاية، والاشتغال بذلك عن الفساد العقلي الصارخ في أصل مذهب المخالف، هو من سمات الطريقة اليونانية في اختيار موضوعات الجدل والمناظرة، وفي توسيع دوائر الجدال والنزاع بين الناس، بما لا يستفيد منه أحد إلا الداعية المجادل إن استطاع أن يحقق غرضه في إظهار نفسه في الخصومة، لا غير. فكيف كان يرجو هذا الشاب أن يظهر تفوقه على عالم من علماء النصارى في المعرفة بمراد صاحب النص المقدس عندهم منه؟ يا أخي الكتاب الذي جعلته مادة للنزاع مع الرجل، نص محرف لا تعرف أنت ولا يعرف هو من كاتبه أصلا، وما صلته بحواريي المسيح، فما الحجة المنتظر قيامها عليهم إن قدرنا أن استطعت أن تبين لهم أنهم كلهم أجمعوا على خطأ في ترجمة هذا النص أو في فهم ذاك؟؟ لا تقوم الحجة عليهم إلا ببيان فساد الأصول الاعتقادية الكبرى التي أسسوا

عليها انتقاءهم لتلك الكتب أصلا في قانونهم! فهم اعتقدوا أولا، ثم جمعوا النصوص التي وسموها بالقانونية، بناء على ذلك الاعتقاد، زاعمين أن الروح القدس هي التي وجهتهم في جميع ذلك! فمن المستفيد والمنتفع على التحقيق من تحول موضوع النزاع بيننا وبينهم إلى نزاع نظري أكاديمي في تأويل بعض النصوص، كما سلكه هذا الأخ في تلك المناظرة؟؟ هم المنتفعون بذلك لا أنتم قطعا! رؤوسهم وكبراؤهم هم المستفيدون! تحولت المناظرة إلى درس أكاديمي في طريقة الكنيسة في التعامل مع الأصول وترجمتها، درس كان يتمنى القمص أن يتكرر مرات ومرات! بعض الدعاة يظن أن في ذلك تكثيرا لموارد النقد والاعتراض على القوم، وزيادة في أسباب تنبيه عامتهم إلى الباطل الذي عليه الرؤوس، والميل بهم إلى الحق، ولكن واقع الأمر أن خلاف ذلك هو ما يحدث على التحقيق. فالقضايا النظرية والتأويلية الدقيقة، هم قطعا لن يقدموا فيها كلام الواحد منكم مهما قال، على تقريرات علمائهم، ودقة مأخذ الحق فيه تصب في صالح أكابرهم وعلمائهم لا في صالح أحدكم! لكن في المقابل، فالمخالفات الكبرى عندهم للفطرة السوية الصحيحة، كلهم يشعرون بفسادها إذا نُبهوا إليها، ولن يكفيهم ملء الأرض أجوبة وردودا من العلماء والرؤوس في دفع ذلك، إن شرح الله صدورهم لقبول الحق! فاعمدوا إلى

تلك الأصول وأنكروها عليهم كما أنكرها عليهم ربهم سبحانه! أما أن ينزل النزاع إلى كلمة كذا في صفحة كذا في كتاب كذا، هل المقصود منها كذا أم كذا، فهذا محض عبث، يسلطهم عليكم على التحقيق، لا أنه يرفعكم أنتم بين أيدي أتباعهم كما تتوهمون!

أصل ذلك الفساد هو إنزال الطريقة اليونانية جميع المتنازعين في جميع المسائل نفس المنزلة، منزلة الندية والمكافأة، ما داموا يزعمون أن لديهم أدلة على ما يقولون، وهو ما تنتفي به حجية الفطرة من مبدأ الطرح. وأصل آخر مهم أيضا وهو اختزالها النزاع بين أهل الملل والنحل إلى الخلاف في موضوع المناظرة في المجلس المعين، بحيث إن انتصر أحد الخصمين فيه، كان ذلك نصرا لمنظومته الاعتقادية التي ينتصر لها، بأسرها، على منظومة المخالف بأسرها، فيما يراه الحضور! فإذا كثرت موضوعات الجدال والخصومة بين المنتسبين إلى ملتين من الملل، وتعددت المناظرات العلنية على هذه الوتيرة، ينتصر أحدهم في واحدة، ثم يهزم هو نفسه في غيرها، أو يستويان ويمتنع الترجيح، فيما أكثره من دقائق المسائل والقضايا النظرية هنا وهناك، فإن الصفة التي تروجها الأكاديمية لأصل النزاع بينهما إذن، تكون أنه نزاع نظري معقد طويل الذيل، لا حسم له مهما كثرت

المناظرات وتعددت، تستوي فيه المناظرة على أمر بدهي فطري خالف أحد الفريقين فيه، بالمناظرة في مسألة نظرية أو تأويلية لنص معين عند هؤلاء أو أولئك! ليس في الأمر فطرة ترجح، وإنما الأمر كله نظر في نظر، ورأي في رأي! وإذن تروج فكرة أن الذي يريد أن يتحول من إحدى الملتين إلى الأخرى أو يفكر في ذلك، هذا عليه أن يمضي السنوات الطوال في دراسة أبواب ذلك النزاع فيما يقال له ﴿مقارنة الأديان﴾، إن أراد أن يرى الصورة على تمامها، وأن يرجح بين ملتين على الطريقة الصحيحة المرضية أكاديميا! وهذا يضر الدعوة قطعا ولا يفيدها، ويورث الإرجاء المحض كما بينا في غير موضع!

ولا يصح أن يقال كما يقوله بعضهم: هذا قد عمت به البلوى فعلا وانتهى الأمر، فلا تطالبنا باتقاء ضرر قد وقع وانصرم بالفعل! فجواب ذلك أن يقال: إن كنت تقصد بالضرر الذي وقع، انتشار شبهات القوم على كتبنا ونصوصنا، فلا شك أن من علاج ذلك، منع الدعاة من أن ينشغلوا عند مجادلة القوم بفروع الباطل عن أصوله الكبرى، ومن أن يجعل أحدهم همه أن يظهر نفسه بمظهر العالم المتمكن من ملة المخالف تمكن علمائها من جميع أبوابها (كما كان يسلكه ديدات عفا الله عنه)، فإن

هذا ليس ما به نثبت بطلان الملل الباطلة أصلا، ولا احتاج الصحابة رضي الله عنهم إليه أبدا ولا تكلفوه! وإنما نتحرى رأس الأفعى فضرب عليه بكل قوة، ولا نستدرج إلى ذيلها كما يقع لهؤلاء! وإن كنت تقصد به انتشار تلك الطريقة في المناظرة وفي اختيار موضوعاتها، فلا شيء يفرض علينا المشاركة في تلك الحمأة بوجه ما! لسنا ملزمين بالتسليم لهم بأن الجدال بالتي هي أحسن لا يكون إلا هكذا! القوم قد صاروا يعتقدون أن المقصود بالجدال بالتي هي أحسن، إنما هو عقد المناظرة، أيا ما كان موضوعها، على شرط واحد فقط، وهو ألا يسيء الخصم إلى مقدساتي ولا أسيء أنا إلى مقدساته، عملا بقوله تعالى: ((وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ)) [الأنعام : ١٠٨]! فما دام يجادل بأدب ولطف في العبارة، فهو على العين والرأس، أيا ما كان موضوع الجدال!! وهذا شرط يوناني في الحقيقة، انتصروا له بهذه الآية، وليس أنه مأخوذ منها كما يزعمون! هذا شرط الديموقراطية اليونانية التي أورثت تلك الطريقة تاريخيا! نتنازع ما شئنا أن نتنازع، أيا ما كان موضوع النزاع، ونتجادل جدالا سرمديا إن أحببنا، ولكن يظل الود محفوظا لكل مخالف أيا كان ما يخالف فيه، فإنه ليس من مسائل الخلاف ما يجوز عندهم أن يفسد للود أي قضية أبدا!! وهل فتحنا باب الجدال على أوسعه، إلا

ليشعر كل ﴿مواطن﴾ بأن رأيه محفوظ محترم، بصرف النظر عما ينتهي إليه مصير الأمة بمجموعها، من الأخذ به أو تركه؟ فأخلاقيات المناظرة اليونانية هذا هو مرجعها ومنبعها على التحقيق، وليس نهي الله تعالى المسلمين عن أن يسبوا الأوثان التي يعبدها المشركون! ولهذا جنح بعضهم مجنحا آخر، فقال إن الله تعالى يقول في مجادلة أهل الكتاب بالحسنى: إلا الذين ظلموا منهم، فلنا إذن أن نغلظ عليهم في المناظرة أحيانا ونشدد العبارة، إن رأيناهم يسيئون إلينا ويتهمون رسولنا عليه السلام بالشنائع وغير ذلك في مجلس المناظرة! وهذا باطل ولا شك، فالمقصود بهذا الاستثناء في الآية الاستثناء من مبدأ المجادلة نفسه، الذين ظلموا منهم هؤلاء لا يجادَلون بالحسنى ولا بغيرها، وإنما تضرب عليهم الجزية وينتهي الأمر! وفي زماننا هذا، يجتنب الجدال معهم ابتداء، إذا عرف ذلك منهم، فإذا وقع في أثناء الجدال قُطِع فورا ولا كرامة، ومُنِع من العود إلى مجادلة من ظهر ذلك منه البتة! وإن أمكن إبلاغ أجهزة الأمن عنه وجب! أما هؤلاء فقد خلقوا بيئة اجتماعية جدلية فاسدة على وسائل التواصل الاجتماعي وغيرها، لا تمييز فيها ولا تفريق، ولا يدري الداعية إذا دخل عليها هل سيقضي وقته في دعوة من ترجى هدايته حقا، أم سيحرقه في دفع أباطيل المنصرين والمستشرقين بما لا يرجى منه طائل أيضا، ولا يقدر

على ترجيح مصلحة من مفسدة لأنه لا يدري أصلا من الذي يسمعه إن كان على العلن، ولا يدري ما أحوالهم وما ميولهم وما الذي يصيبهم إن تعرضوا للباطل الذي يثبه المخالف بين يديه!

وهذا ينتقل بنا إلى الحيثية الثالثة المهمة في التفريق بين طريقة أهل السنة في الجدال وطريقة أهل الكلام ومن شاكلهم، ألا وهي النظر في أحوال المخاطبين بالجدال. فالأصل في الجدال عند أهل السنة أنه ممنوع إلا من ضرورة، خلافا للفلاسفة وأتباعهم، الجدال عندهم هو مقتضى الضرورة الاجتماعية والسياسية، كما مر بيانه! نريد أن نحقق أهدافا اجتماعية معينة، لا تتحقق إلا بأن نظهر أنفسنا على أننا أصحاب رأي قوي، ونظر ثاقب، حري بأن يسمع وبأن يحترم، أيا ما كان موضوع النظر، فما السبيل؟ نجادل ونناظر ونخاصم على ملأ من الناس! هذه هي السبيل اليونانية، لا سبيل غيرها! ندخل سوق الجدل التي يدخلها كل أحد! وهذا خلاف ما عليه المسلمون. فالداعية المسلم يعمد إلى أصل الباطل الجلي عند أهل الملل الشركية، فيشنع عليه ببيان لوازمه الشنيعة، ويطالب القوم بالخروج منه، لا بأن يدعوهم ابتداء لمناظرة تكون مرتبة ترتيب المجلس الأكاديمي الذي يجالس فيه النظير نظيره، يخاطبه خطاب الند للند، على تسوية بينهما في

الحق في بيان ما عنده والانتصار له! هذا إنما يستساغ ويقبل في المسائل النظرية التي يدخلها الخفاء مبدئيا، ويكون النزاع عليها بين أقران في ذلك العلم النظري، متمكنين من أداته، مستحقين جميعا لإحسان الظن بدوافعهم ونياتهم، مبدئيا، ولا يُعرف عن أحدهم أنه مكابر جاحد يجحد الحق إذا تبين له! بل إن نوع المسألة التي تفتح للمناظرة ليس بحيث يظن فيمن يدعي خفاءها عليه أنه مكابر جاحد أصلا! هي من جنس ما تتقارب فيه أسباب القبول والرد، وتتشابه المآخذ ووجوه الاستدلال، والمناظرة معقودة إذن من أجل أن يستعين كل من الناظرين بالآخر في بيان وتجلية ما قد يكون خفي عليه أو غفل عنه من ذلك. ولهذا يقال في مثل هذا: رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي مخالفي خطأ يحتمل الصواب. أدخل وأنا معتقد هذا من الابتداء، ولا إشكال، لأن هذه هي طبقة هذا النزاع وطبيعة تلك المسألة. وأنا مستعد إذن، بل أود لو يظهر الحق عند مخالفي، كما قال الشافعي فيما يروى عنه: ما ناظرت أحدا إلا وددت أن يظهر الله الحق على لسانه، أو نحو ذلك. فالمناظرة تسمى مناظرة من المفاعلة، أننا نظراء في القصد والآلة، نجلس في مسألة يدخلها الخفاء علينا جميعا، فنتبادل النظر فيها طلبا لتجلية الحق. فإذا انقضت تلك المناظرة وبقي الخلاف قائما، لم يفسد للود أي قضية، لماذا؟ لأن موضوعها من الأصل

مما يستساغ الخلاف فيه، ويراعى فيه دقة الأمر وتقارب الأدلة. ولولا الحاجة إلى تجلية ما يخفى واستظهار ما دق من وجوه الاستدلال في ذلك، ما عقد الجدال وما استسيغ أصلا من مبدأ الأمر! فإنه كما مر على خلاف الأصل.

فالجدال مظنة المشاحنة والمباغضة والانتصار للنفس فيما لا يكاد يسلم منه أحد، فكيف بالمعظمين من رؤوس الملل الشركية؟؟ فكما أن الله تعالى يقول في أهل الكتاب ((فجادلهم بالتي هي أحسن))، فهو كذلك يقول: ((وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ)) الآية [الأنعام : ١٢١]، ويقول: ((مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ)) [غافر : ٤] ويقول: ((وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُواً)) [الكهف : ٥٦] فالرسول يبادئهم بالبشارة والنذارة، وهم يبادئونه بالجدل، وليس أنه يدعوهم ابتداء للمجادلة والمناظرة، على المعنى الذي حررناه آنفا! كيف والله لم يبعثه ندا لهم ولا نظيرا، وإنما بعثه هاديا للحق، بشيرا ونذيرا؟؟ ويقول تعالى: ((الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً

عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ)) [غافر : ٣٥] فمجادلة هؤلاء للداعية عند دعوته إياهم من أكبر ما يمقته الله تعالى ويبغضه، وهي من كبرهم وتجبرهم بالباطل، فلا يستجاز ذلك إلا من ضرورة، وبشروط صارمة لا يجوز التهاون فيها، منها ألا يكون الجدال على طريقتهم وشرطهم الباطل، يزعمون أنهم إن تبين لهم وجه الحق في هذه المسألة أو تلك فسيعترفون بنا بصحة الإسلام! وهذا نراه كثيرا في مناظرات الدعاة للقوم، يأتيهم أحدهم فيقول له إن أجبتني عن هذا السؤال جوابا يقنعني، فسأدخل في الإسلام الآن وفورا! فينجرف الداعية من حيث لا يشعر ولا ينتبه في الجدال معه على تلك المسألة، ولا ينتهي إلى شيء غالبا، إلا أن يضر بمن حضروا ومن سمعوا ويلبس عليهم دينهم فيما كانوا منه في عافية! ولو أنه استوقف هذا المكابر ليقول له: كيف وبأي عقل جعلت تجلي تلك المسألة الفرعية لك (كمسألة زواج النبي عليه السلام بالصغيرة مثلا، أو مسألة الرق في الإسلام أو ما شاكل ذلك)، شرطا لظهور بطلان أصل الشرك الذي أنت عليه، ووجوب الخروج منه عليك؟؟ أنت تكابر والشيطان يلبس عليك! فمسائل الخلاف بيننا وبينكم ليست كلها على منزلة واحدة قطعا! فلا يضيرك أن تموت على الإسلام وأنت لا تدري ما الحكمة في تجويز الإسلام الزواج من

الصغيرات، وإنما يضيرك أعظم الضرر أن تموت على الشرك، وأنت تزعم أن مسألة كهذه هي التي تحجزك عن الخروج منه والفرار إلى التوحيد!! ما رأيت أحدا من الدعاة يجيب بنحو هذا أبدا على أمثال هذه الاشتراطات الواهية عند القوم، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

نحن أهل السنة نراعي الدوافع والنيات والأحوال النفسية الباطنة عند مخاطبة المشركين بالدعوة، نتحراها بقرائنها وأدلتها في المخاطب قبل خطابه، فإذا تبين لنا من حال رجل ما أنه يكابر في أصل المطلب والشرط الذي يشترطه علينا لأجل أن يقبل الدخول في الإسلام، لم نجبه لشرطه، ولربما لم نستجز أن نخاطبه أو نلتفت إليه أصلا! لا بأس، لا يضيرنا ذلك عادة، ولا يضر أحدا سواه! أما أن يجلس الداعية في الطريق العام، كما يصنعه بعض الدعاة الغربيين اليوم في بلادهم، فيما يقال له ركن المتحدثين Speakers Corner في الهايد بارك وغيرها، يجادل كل من هب ودب على ملأ من الناس لا يعرفهم، ثم تراه يصور ذلك وينشره على الناس بدعوى أن هذا من الجدال بالتي هي أحسن، فلا والله ليس الأمر كذلك! سلمنا بأنك تعرف هؤلاء الذين يقفون أمامك في تلك الدائرة القريبة التي تدعوهم فيها حيث تقف، ويترجح عندك أن إظهار من تجادله للباطل

الذي عنده بين أيديهم لن يضرهم، وليس الأمر كذلك، لكن سلمنا، فما بالك تصور ذلك الجدال وتنشره على اليوتيوب وغيره، تظن أن هذا ينفع الناس، وأنت لا تدري من يسمعه ومن يتعرض له وكم من الناس يتأثر به؟؟ ما يأمنك أنه لا يضرهم فوق أن ينفعهم؟؟ ومن أين يأتيك الترجيح بذلك أصلا؟؟ المتكلمون عندهم أصل أن نشر ذلك متعين، وأنه أحسن مطلقا، وأصلح مطلقا، لأنه على أقل تقدير، يظهر للناس، لا سيما المسلمين من أهل البلد، أن الداعية المسلم قادر على التصدر في هذه الموضوعات، وعلى إثبات نفسه فيها، وهذا بزعمه مصلحة راجحة مطلقا! ولكن هذه ليست طريقة أهل السنة في هذا الباب البتة، وإنما هي طريقة أصحاب الكلام الذين تحركهم الأهواء الخفية لإظهار أنفسهم بتلك الخصومات في كل مناسبة! نحن إن لم تترجح لدينا المصلحة الشرعية من مجادلة من جاءنا سائلا أو مجادلا، ولم نتمكن من ترجيحها بظن قوي، لم يجز لنا أن نقبل مجادلته أصلا! ولا نقول إن مجرد الاشتباك معه وإظهار الندية له يخدمنا!! أي انهزام وأي هوان وأي دنية في الدين تلك التي دخلت على هؤلاء؟؟ ما أدخلها عليهم إلا شهوة الرياسة والعلو في الأرض بمثل ما علت به الفلاسفة، نسأل الله السلامة.

أهل السنة مطلبهم ومقصدهم من الخطاب الدعوي الموجه للمشركين، إنما هو هداية المشركين للإسلام، والحفاظ على دين المسلمين المخالطين لهم وصيانته مما يفسده أو يخدشه أو يعكر عليه، والمطلب الثاني عندهم أعظم وأهم في الميزان من الأول ولا شك. فإن البدعة والشبهة والضلالة إذا أطلت بقرنها الخبيث بين المسلمين، أوردتهم النار، وهم ما يريدون من الدين إلا الفرار منها، نسأل الله السلامة! والله تعالى يقول: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)) [التحريم : ٦]! فما كانت الوقاية الواجبة المفروضة في دين الله تعالى لا تتم إلا به، فهو واجب قطعا! فإذا كان هذا يضر المسلمين في دينهم، فليس الشأن كذلك في تركهم دعوة المشركين البتة إن قدرنا أن تركوها! فإنه إذا تزاحم الأمران، أو احتمل أن يتزاحما مع العجز عن الترجيح (وأعني دعوة المشركين، وصيانة دين المسلمين) قدم الثاني منهما قطعا، قولا واحدا! ما أظن أحدا من المنتسبين إلى العلم يخالف في ذلك، حتى المتكلمين! وإنما يزعم المتكلمون أن مناظراتهم تنفع المسلمين كما تنفع المشركين، فلا يرد عندهم التزاحم أصلا! لا يهم أن يشك أناس في دينهم، وإن كثروا، ما دام سيظهر لآخرين أن المتكلم قادر على إظهار عقلانية الدين والإيمان

وسلامته من التقليد فيه! لماذا؟ لأن ثبوت العقلانية واسم العقل، والسلامة من التقليد، لإيمان المسلمين أنفسهم، لا يحصل عند المتكلم (على أثر خضوعه لإبستمولوجيا الفلاسفة) إلا من تلك الطريق أصلا!! لهذا جعلوا النظر الذي يبذلونه فيها ويتكلفونه بين أيدي الخصوم، هو أول واجبات المكلفين كما هو معلوم! فكيف يكون ضارا في الدين ما هو عندهم أول الواجبات على المكلفين؟ لا إشكال في أن يقع بعض المسلمين في الشك بسبب ذلك! فإن كانوا هم لم يتكلفوا النظر من قبل، فلنبين لهم نحن كيف ينظرون، فإن هذا واجب عليهم قد فرطوا فيه، وعليهم الآن أن يأتوا به! أما أهل السنة فقد سلمهم ربهم من تلك الإبستمولوجيا اليونانية الفاسدة، فالشك عندهم مرض يجب الوقاية منه باجتناب أسبابه التي منها التعرض لبضاعة الفلاسفة، لا أن الوقاية منه تكون عند بعض الناس بمناظرة الفلاسفة!! بينوا للمتشكك إن أردتم استنقاذه منبع الشك وأصله في طريقة الفلاسفة، لا بأن تقدموا بين يديه برهانا فلسفيا جاريا على تلك الطريقة نفسها، تناظرون عليه الفلاسفة!

فمن هنا انقلب ميزان المصالح والمفاسد في هذا الباب عند المتكلمين رأسا على عقب! وصار الأصل وجوب النظر والجدال لتحقيق اليقين، وليس

وجوب منعه والفرار منه، حفاظا على اليقين، كما هو عند الصحابة والسلف!

واليوم صرنا نرى دعاة، كمحمد حجاب وياسر قاضي ومن شاكلهما، يتحرون استثارة الجدل والنزاع الفلسفي وإحياء البراهين القديمة والدفع بها في أكاديميات المعاصرين بدعوى إثراء الوسط الأكاديمي الفلسفي، وهم يزعمون أن هذا أحسن للمسلمين، الغربيين على الأقل!! فبأي عقل وبأي منطق يكون ذلك خيرا للمسلمين بوجه من الوجوه؟؟ ليس إلا عقل اليونان ومنطق أرسطو ولا شك! أما عقل المسلم المتضلع بمشكاة النبوة، فلا والله لا يرى ذلك ولا يقبله ولا يجيزه أبدا! المسلم الصادق في تحري الحق، الحريص حقا على ألا يموت إلا عليه، كما أمره ربه في قوله تعالى: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ)) [آل عمران : ١٠٢] يفر من الفلاسفة فراره من المجذوم، لا أنه يبحث عن فيلسوف أو متفلسف مسلم يتصدر بمجادلة هؤلاء في محافلهم والنشر عندهم، بعدما جعلوه ندا لهم!!

المجادل من المشركين لا يكون ندا مكافئا للداعية المسلم أبدا، سواء كان سائلا يدعي أنه يجادل من أجل أن يفهم، أو مكابرا يدعي أنه يرى بطلان

الإسلام، ولا يجد ما يرجحه به على ما هو عليه! والشرع لم يأت بمعاملته معاملة الند المكافئ أصلا! كيف والله تعالى يقول: ((مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ)) [هود : ٢٤]، ويقول: ((قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)) [الرعد : ١٦] ويقول: ((قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)) [الرعد : ١٦]! فالذي يجادل منهم في بطلان الشرك، أو يدعي اشتباه خلق الله بخلق غيره، هذا لا يجالس مجالسة الند والنظير، يقال له أظهر ما عندك من الأدلة وأظهر أنا ما عندي، فإن أقنعتني صرت إلى مذهبك، وإلا صرت أنت إلى مذهبي!! وإنما هذا من أصول المدرسة اليونانية في الجدل، التي تصير جميع المسائل من موارد النظر والاشتباه والخفاء على كل عاقل! ولهذا كره الفلاسفة الأقدمون الخطابة

Rhetoric وفنون التأثير على الناس باستمالة مشاعرهم، لأن هذا ليس ما به يعرف الحق في موارد النظر! وهذا صحيح ولا شك، إلا أنهم من سفسطتهم جوزوا النظر في كل شيء، فمنعوا استعمال الخطابة والتأثير الشعوري في كل دعوة وفي كل خطاب، وذموه بأنه من طرائق السفسطائيين! وإلا فأتباع المرسلين إذا تعرض لهم من يعرفون أن أهواءه تمنعه من قبول الحق الجلي الظاهر الذي لا يماري فيه حتى الصبية الصغار، فإنهم لا يجالسونه للمناظرة، فإن الخلاف إذن ليس من جنس ما يتكافأ فيه المتخاصمان معرفيا، وتتقارب أدلته فيدخلها الخفاء! وإنما هو خلاف من لا يقبل الحجة السمعية الجلية لمرض في نفسه! فيجب التشنيع والتقبيح والتبكيت إذن، من مبدأ الخطاب، لا أن يقال له هات ما عندك، فإن تبين لنا أنك على حق، وافقناك!!

ولهذا كان الأصل فيما يستجاز من مجادلة المشركين الإسرار بها، لا الإعلان، لأنه إن تبين أنه صاحب هوى، وهذا هو الغالب عليهم، فلا نأمن ثمرة المراء والجدال الذي يأتي هو به على الحضور! والنبي عليه السلام لما جاءه نصارى نجران يسألونه ويجادلونه، لم يجبهم لطلبهم على ملأ من الناس! ولا ثبت ذلك في شيء مما وقع من مخاطبة الصحابة

للمشركين بالدعوة! يروى أن النبي عليه السلام قال لكبيرين من كبراء الوفد: أسلما، فقالا: قد أسلمنا قبلك، قال :كذبتما، منعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولداً، وعبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير، قالا: إن لم يكن عيسى ولداً لله فمن أبوه؟ وخاصموه جميعاً في عيسى، فقال لهما النبي صلى الله عليه وسلم :ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا ويشبه أباه؟ قالوا: بلى! قال :ألستم تعلمون أن ربنا قيّم على كل شيء يحفظه ويرزقه؟ قالوا: بلى! قال :فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً؟ قالوا: لا، قال: فإن ربنا صوَّر عيسى في الرحم كيف شاء، وربنا لا يأكل ولا يشرب ولا يُحدِث، قالوا: بلى! قال :ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها، ثم غُذِّيَ كما يُغذَّى الصبي، ثم كان يطعم ويشرب ويُحدِث؟ قالوا: بلى! قال :فكيف يكون هذا كما زعمتم؟ فسكتوا.

قلت وهذا وإن كان ضعيفا من جهة الإسناد إلا أن العلماء تلقوه بالقبول إجمالا، بما يدل على سلامة مضمونه. فالجدال كما ترى، إنما بدأ بمطالبتهم بالإسلام والدخول في التوحيد، فلما جادلوا، كما وقع، تكلف بيان بطلان أصولهم الكبرى بأوجز وأقوى ما يمكن من ذلك، لا قبل ذلك! فإن قدرنا

أن أصروا، فلم يكن ليقبل منهم مراءهم وجحودهم للحق، يقرهم على زعمهم أنه لا يظهر لهم، بل يفرض عليهم الجزية إن كان غازيا فاتحا، أو يباهلهم كما فعل النبي عليه السلام، خلافا لقوم لا يبالي أحدهم بأن يمضي الساعات بل الأيام والسنون في مجادلة الكتابي أخذا وردا، كلما جاءه بشبهة تكلف الجواب عنها، فإذا قال لم أقتنع، حاول بطريق أخرى، مما قد يدخله الخفاء من حيث طريقة صاحبه وبالنظر إلى نفس موضوعه، خلافا لأصل الباطل الذي تقوم عليه الملة نفسها!

والمباهلة في الحقيقة، من مبدأ تشريعها، تصادم أصل الطريقة اليونانية في الجدال. فأنت لا تقدم على أن تدعو ربك أن يهلكك إذا كنت على باطل، أنت وأهلك وولدك معك، أو يهلك خصمك إن كان على باطل هو وأهله وولده معه، إن كانت المسألة من جنس ما يدخله النظر والخفاء، ومن ثم يسوغ عقد المناظرة على الطريقة اليونانية! هذه طريقة زجر وتخويف، تفيد اضطرار الخصم المكابر للاعتراف بالحق الذي نعلم أنه قد ظهر له! وإلا فلو كنت تجيز ورود المعارض النظري على موقفك، ولو باحتمال ضئيل، ما كنت لتدعو على نفسك بالهلاك إن كنت مخطئا! هذا لا يتصوره عاقل! والمناظرة مدارها على تجويز ظهور المعارض النظري

على كلا الخصمين مبدئيا! فلا يتجادل الرجلان العاقلان، على قالب المناظرة بهذا المعنى، ثم ينتهي أحدهما بأن يباهل خصمه!! الفلاسفة لا يرون ضررا غيبيا ينزل عليهم إن ماتوا على أيما مقالة ماتوا عليها، وهذا من سفسطتهم وجهلهم وكبر نفوسهم، خلافا للمسلمين.

ثم تأمل كيف أن الخطاب لم يجر بأن أظهر النبي عليه السلام للقس النصراني جهله بتناقض واقع بين نصين من نصوص كتابه! ولا بأن طالبه بإثبات بنوة المسيح أو إلهيته من كتابه، كما يسلكه كثير من الدعاة اليوم، بحيث إن جاءه بنص يزعمه دليلا، جادله في دلالته لعدة ساعات، وكأنما جاء بنص نسلم بصحة نسبته إلى وحي السماء ابتداء! فالجدال لم يؤسس الحق الذي عندنا على شيء مما عندهم! وإنما ألزمهم بشناعة قولهم، إلزاما مباشرا واضحا، لا يماري فيه إلا مكابر معلوم المكابرة! أنتم جعلتم المسيح ولدا لله تعالى، بقياس على أولادكم، فهل علمتم ولدا ليس فيه من خصال أبيه شيء البتة؟ فإن كان المسيح ولدا لله، فالمسيح ينام والله لا ينام، والمسيح يأكل ويشرب ويحدث والله منزه عن جميع ذلك، والمسيح قد يجامع النساء طلبا للولد، والله منزه عن ذلك، واتخاذ الولد لا طريق له إلا المصاحبة مما لا يكون كله إلا في المخلوقين، وكله موجب لغير ذلك

من النقائص في حقه وأنتم تعلمون ذلك، فكيف تقولون إنه ولده؟؟ فإن جادلوا هنا وقالوا لا نقول إنه يشبهه في صفات البشر المخلوقين، ولكن نقول إن فيه أقنوما من الأقانيم، وهو اللاهوت لا الناسوت، إلى غير ذلك مما تفلسفوا به، بُين لهم وهاء مسألة الأقانيم هذه وأنها إن كانت أجزاء لله، فهم إذن يفكون بعض الذات الإلهية ليحلوها في مخلوق، وهو إذن ناقص غير مستحق للربوبية، وإن لم تكن كذلك فهم يحلون الرب في بعض خلقه، يدخلونه في الرحم ويخرجونه من الفرج ويعتقدون قيامته من الأموات إلى غير ذلك من نقائص يجب تنزيهه عنها، فهو ناقص على كل تقدير! وإن قالوا الأقنوم هذا إله منفصل ولكنه وغيره من الأقانيم كلها معا إله واحد، بين لهم بطلان ذلك وتناقضه بأول العقل! فإن واصلوا السفسطة والتفلسف، وهم فاعلون غالبا، قُطعوا وتبينت مكابرتهم بذلك، فيما لا يجاوز الخمس دقائق، ولا يُحتاج فيه لمجاوزة ذلك! فإن امتياز الخالق عن المخلوق وبينونته منه وتنزهه عن مخالطته ليست من المسائل النظرية التي يرد عليها ما يبطلها! وكذلك تسويتهم بين معنى الواحد ومعنى الثلاثة! فالخطاب كما ترى ليس جاريا على تكلف محاولة إظهار التفوق على القوم في العلم بما في كتبهم، كما بدعه من سلكوا تلك الطريقة! ولا جرى الجدال بأن أقدم أنا المسلم ما عندي في ربع ساعة، ويقدم هو ما

عنده، ثم أرد عليه ويرد علي، على سبيل الندية، ثم يترك للحضور أن يجرحوا أي المذهبين أولى بالاتباع!! ما كان من حضور أصلا كما ترى!

ولهذا فلا يجوز أن نقبل القالب اليوناني في المناظرة، عند مخاطبة المخالفين من أهل الملل، حيث يجلس الرجلان مجلس الند المكافئ لبعضهما البعض، فيفتتح أحدهما الجدال بكلمة لها مدة مخصصة، ثم إذا فرغ مما عنده، تعين عليه أن يجلس هو والحاضرون ليسمع دعوة المخالف لمذهبه ونحلته كما أسمعه هو دعوته، في نفس المدة المخصصة، ثم يرد هو على ما قدمه خصمه في وقت أقل من الوقت الأول أو مثله، ويرد الخصم على ما قدمه هو في خطبته الأولى في وقت مثله، وربما رد على بعض ما رد هو به، هذا نمط من يريد الفصل بين ندين يحتكمان إليه، فيقدم هذا ما عنده وهذا ما عنده، ثم يحكم هو بما ينتهي إليه! ولهذا سماهم بعضها بطريقة المحامين! فهم أحيانا يكرهونها لا لأنها تسوي الحق بالباطل، ولكن للعكس من ذلك تماما، لأنهم قد يريدون أحيانا أن يجري الأمر في قالب الجلسة الودية التي يتجاذبان فيها أطراف النقاش، دون أن يحاول أحدهما أن يقنع الآخر بشيء أصلا! وهذا وقع لويليام لين كريغ في عدد من محاوراته.

ففيما يتعلق بمستند الحجة معرفيا، فأهل السنة كما مر لا يجادلون المخالفين من أهل الملل مجادلة النظير لنظيره، وإنما مجادلة حامل المحجة النبوية الناصعة، لمريض يزعم أن ثمة ما يمنعه من أن يراها على ما هي عليه. لماذا؟ لأن أصل تلك المحجة وسبب حجيتها ومستندها المعرفي إنما هو الفطرة التي جبل الله الناس عليها! ليس فرضا نظريا أو قياسا عقليا على ما يشترط الفلاسفة التقديم به في براهينهم السيلوغية! فالذي يقترح ضربا من ضروب القياس (كالشمول والتمثيل)، لإثبات ما يريد، إثباتا كسبيا تأسيسيا، يرد عليه بطلان ذلك القياس ولا شك، ويكون في ذلك ندا مكافئا لخصمه مبدئيا، من حيث المنزلة المعرفية! لا أنه يكون ﴿هاديا﴾ له إلى ما ينجو به من ﴿ضلاله﴾! ليس أحدهما هاديا وليس الآخر ضالا أصلا، ولا يصح ذلك في مثل هذا! ولهذا تأول المتكلمون قوله تعالى: ((وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)) الآية [سبأ : ٢٤]، أن المقصود ما يسلكونه في تلك المناظرات من إظهار التسليم للخصم بجواز أن يكون هو على الحق وأن نكون نحن على الباطل! ثم يتفلسف أحدهم إذا أنكرنا عليه ويقول: هذا من افتراض ما لا يقع، ولا إشكال! ولكنه في القرآن ليس على هذه الصورة التي يصورونها أبدا! كيف يجاز للمسلم أن يقدم على مخاطبة المشرك بالدعوة، وهو يعتقد، أو حتى يدعي، ولو

تعريضا، جواز أن يكون دينه هو، الذي جاء يدعو إليه، على باطل؟؟ ليس هو ﴿داعية﴾ إذن، يدعو الناس للهداية، وإنما هو ناظر صاحب نظرية، يرد عليه ما يرد على مثله من النظار من احتمال الغلط! وإذن فليس له أن يشنع على المخالف، فضلا عن أن يدعي أن ﴿الحجة قد قامت﴾ عليه، إن زعم أنه لا يظهر له صحة الدين، مهما جادله الناس! ولا يجوز له أن يكذبه مهما زعم أنه لا يرى مقدمات خصمه تؤدي إلى ما يزعمه من النتائج!

لهذا نمنع من مجادلة المشركين (ملاحدة كانوا أو وثنيين أو أهل كتاب) على قالب المناظرة اليونانية، وإنما نطالب أحدهم بالإسلام ابتداء، فإن اعترض وزعم أنه لا يرى الإسلام حقا، بل يرى دينه هو الحق، بينا له بطلان ما هو عليه بما يناسب حاله، إن كان ممن يرجى له الاستجابة والقبول، بأن نأتي على قواعد الباطل عنده ننسفها نسفا، مع مزيد من الوعظ والتخويف من أن يموت على ما هو عليه. فإن قبل فبها ونعمت، وإن أبى وأصر، تركناه وشأنه! وإنما طلب النبي عليه السلام وفد نصارى نجران للمباهلة، لأنهم كبراء في قومهم! فإما أن ينزجروا ويخافوا ويدخلوا في

الإسلام، فيكون خيرا لأتباعهم، وإما أن ينزل الله بهم الهلاك، فيكون خيرا لأتباعهم أيضا، فهو خير على كل تقدير.

ولا نجيز مجادلة المرتد، وإنما يستتاب عند القاضي، لأنه خرج من الإسلام على علم بأنه الحق المطابق للفطرة، سمع القرآن وعرف من الدين ما عرف، فالحجة الرسالية قائمة عليه سلفا. ولكن على الطريقة اليونانية، الطريقة الكلامية، يلزم أن يعامل معاملة الناظر صاحب الرأي الجديد الذي صدق مع نفسه فصرح بالتحول إليه! وهنا يقال لك: أم تفضلون أن يكتم كفره وتبدل إيمانه، فيكون منافقا؟؟ وهذا من شبهاتهم المشهورة، أن الإسلام يفرض على كل من كان مسلما ثم تحول قلبه عن الإسلام، أن يمضي ما تبقى من عمره منافقا يكتم كفره، خوفا من عاقبة إظهاره بين الناس! وجواب ذلك أن يقال إن هذا هو الخير له وللناس على التحقيق. لماذا؟ لأن ذلك التحول إنما يدل على مرض وميل قلبي شديد الفساد وقع في نفسه! فإن وجد في بيئته الاجتماعية تشجيعا على إظهاره والمجاهرة به والمفاصلة عليه، ووجد له أعوانا على ذلك، فلن يزداد إلا إصرارا عليه، تلذذا بثمرته الاجتماعية واستحسانا لها. وإن أمن على نفسه البطش إن أظهر ذلك الفساد في الناس، فسيكون لا محالة مائلا لطبع المقربين إليه من

المسلمين على ميله الجديد، وتزيينه لهم واستدراجهم إليه، ساعيا في ذلك ما استطاع، لأن أمر الدين ليس عند جماهير المسلمين ما هو أعظم منه، بفضل الله ومنته! وهو عند كل مؤمن باليوم الآخر، جد ليس بالهزل! لهذا لم يجعل الله تعالى حكما للمرتد إلا القتل! إن أظهر ذلك قتل! فإن مال عن الإسلام وهذا الحكم قائم في البلاد، فلن يملك إلا أن يخفي ذلك في نفسه ولا يبديه للناس، ولا يظهر ما يمكن أن يفضحه به بوجه ما! وإذن يسلم المسلمون من فساده، ولعله هو نفسه إن وجد أنه لن يكسب من إعلان ردته إلا المكاره الدنيوية الكبرى، ولن يحصل له من التحول عن الدين ما يشبع له شهوة من الشهوات التي لا يحمل الناس على إعلان الردة عن الإسلام شيء غيرها، فلعل الله يهديه إلى التوبة، فيرجع وكأن شيئا لم يكن!

فالحمد لله على نعمة الإسلام والسنة.

وكتب

أبو الفداء ابن مسعود،

غفر الله له